مجلة الشريعة والاقتصاد
ISSN : 2335-1624
E-ISSN : 2588-2392
المجلد11 / العـدد: 2 (2022) ص 54-74

سؤال المنهج في فكر مالك بن نبي
-كتاب شروط النهضة أنموذجا-

The question of the approach in the writings of Malik bin Nabi
-Conditions of renaissance as a model-

أحمد ذيب
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة، قسنطينة، الجزائر، ahmed25dib@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/12/07 تاريخ القبول: 2022/12/26 تاريخ النشر: 2022/12/29

الملخص:

يعد البحث الذي تناول به مالك بن نبي شروط النهضة فريدا في منهجه وطريقته، جديدا في أفكاره ومقترحاته، ملهما في مباحثه وموضوعاته.

ويتنزل هذا البحث ضمن سعي منهجي لرصد أهم التبصرات المنهجية التي اختطها مالك بن نبي في هذا الكتاب، والوقوف على الحجارة التي بنى بها صرحه النهضوي، وذلك من أجل تمهيد السبيل نحو استثمارها في مشاريع تداولية ناجزة تسهم في إغناء الراهن بكل آفاقه وتطلعاته.

هذا، وقد استدعى التأمل في هذا الموضوع طرح التساؤلات الآتية:

-ماهي أهم التبصرات المنهجية التي طرحها ابن نبي في كتاب شروط النهضة؟

Abstract

This paper aims to extract the most important methodological rules mentioned by Malik bin Nabi in his book Conditions of Revival.

This research comes within a systematic attempt, in order to observe the important methodological ways that follows by of Malik bin Nabi in this book, and discover the basics which it was built his renaissance thought, This is in order to pave the way to invest that in successful deliberative projects that contribute to enriching the present with all its horizons and aspirations.

The thinking on this subject necessitated asking the following questions:

- What are the most important methodological

insights proposed by Ibn Nabi in the book Conditions of the Renaissance?

- How does Malik bin Nabi understand the issue of methodology?

- What is left for us today from what Ibn Nabi put forward in methodology ?

Keywords: Malik bin Nabi, The Approach, The Conditions of Revival

–كيف يفهم مالك بن نبي مسألة المنهج؟

–ماذا بقي لنا اليوم مما طرحه بن نبي بخصوص المنهج؟

الكلمات المفتاحية: المنهج، مالك بن نبي، شروط النهضة، الفكر الإسلامي.

1.المقدمة :

منذ اتصال العالم الإسلامي بالمُنْجَز الغربي ونهضته المادية، أضحتْ « الكتابة النَّهضوية » معرفة فاعلة في حقول الفكر الإسلامي، رَفَدَتْ السَّاحَة العلمية بجملة من الكتابات البحثية، وأَمَدَتْهَا بمجموعة من النَّظريات والمقاربات التي تعالج مشكلات النَّهضة وسُؤَالات التحضر.

ومن أشهر الكتابات النَّهْضَوية كتاب « شروط النَّهضة » للمفكر الجزائري مالك بن نبي، الذي أداره على مجموعة من النَّواظم المنهجية المائِزة.

فقد استطاع مالك أن يُوَفِّق في هذا الكتاب بين الانفتاح على عَطَاءَاتِ المعارف الإنسانية المعاصرة، والتناسق الثَّبَاتِي المحافظ على أصالة الفكر الإسلامي، فتحقَّق له بذلك الجمع بين عالمية الخطاب وخصوصية المرجعية.

ويبقى الغرض الأول من طرح سؤال المنهج في هذه الدراسة هو تَبَصُّر المحتكمات المنهجية التي اختَطَّهَا مالك في هذا الكتاب، والوقوف على الحجارة التي بنى بها صرحه النَّهضوي، وذلك من أجل تمهيد السبيل نحو استثمارها في مشاريع تداولية ناجزة تُسهم في إغناء الرَّاهن بكل آفاقه وتطلعاته.

ولعل هذا هو الغرض الذي كان يتغيَّاه مالك نفسه من كتاباته، فقد كان كثيرًا ما يُصَرِّح بأنه يُخاطب أجيالاً قادمة لم تُولد بعد، ويُبَشِّر بالعودة بعد عقود من الزمن [1]، فهل عاد إلينا ابن نبي كما وعد؟

([1]) ومن الأقوال المأثورة عنه في ذلك: « فلكم أنتم أيها الشباب بعد ثلاثين سنة أن تروا الحقيقة سافرة كما هي، أما نحن في جيلنا فلا نرى إلا توقعات، ونحاول أن نرى من خلال هذه التوقعات جانبًا من مصير الإنسانية». **مالك بن نبي**، دور المسلم ورسالته، ص23.

1-1-مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

إنَّ التأمل في هذا الموضوع يستدعي ثلة من الأسئلة المنهجية التي تفرض نفسها على بساط البحث والدراسة، لعل من أهمها:

- ما هي أهم التَبَصُّرات المنهجية التي طرحها مالك بن نبي في كتاب شروط النهضة؟
- كيف يفهم مالك بن نبي مسألة المنهج؟
- ماذا بقي لنا اليوم مِمَّا طرحه مالك بن نبي بخصوص المنهج؟ هل له بُعدٌ ابستمولوجي وإجرائي يمكن الإفادة منه في الكتابة النَّهْضَوية؟

1-2-فرضية الدراسة:

تنطلق هذه الدراسة من فرضتين مركزيتين يسعى البحث إلى فحصهما وتأكيدهما، وهي:

- يفترض المقال أنَّ دراسة فكر ابن نبي في إطار المساءلة المنهجية من شأنه أن يمدنا بنتائج أكثر صِدْقِيَة وفاعلية؛ مقارنة بدراسته كموضوع ونتيجة. ذلك أنَّ تحقيق النَّفاع الكامل بالمِنْجَز المالكي لا يتم إلا باكتشاف الأسرار المناهجية التي هَنْدَسَ بها أفكاره، وَتَلمُّس الدلالات الهَادِية إلى طريقته في البناء والتشييد؛ **فمالك بن نبي يُفْهَم مناهجيًا لا موضوعيًا، ويُقرئ بالمجموع لا بالآحاد**، ولذا فإننا بحاجة إلى أن نستمع إلى مالك بأذن ثالثة كما يقول تيدور رايك (theodor reik) لِنَعِيَ عنه أغراضه المضمرة، وأسراره الكامنة.

- كما تفترض أنَّ مالكًا احْتَطَّ لنفسه منهجًا مُسْتَأنفًا في دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة، وأنَّ منهجه هذا لا يزال غَضًّا رطيبًا.

1-3- دواعي الاختيار وحوافزه:

لطالما حَدَتْ بي عوامل الشَّغَف بموضوع المنهج عند مالك بن نبي، وهي رغبة آذنت في الظهور منذ الاطلاع على كلام المفَكِّر السُّودَاني محمد أبو *القاسم حاج* حمد (1941-2004م) – رحمه الله- الذي كان يرى رأيًا خاصًا في مالكٍ يُبَايِنُ رأي الأكثرين، وهو أنَّ مالكًا يُحسن الاستعارة المنهجية لكنه يعجز عن التأليف والتركيب بين مختلف وحداتها [1].

فهذا سببٌ ذاتي.

([1]) **محمد أبو *القاسم حاج* حمد** ، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي، ص295.

أما السبب الموضوعي، فَلِأَنَّ سؤال المنهج يُعَدُّ في نظرنا لُحْمَةَ الكتاب وَسُدَاه، وهو مَكْمَن شُفُوفِه، وموضع امتيازه؛ إذ يتفق جميع من قرأ لمالك بن نبي على تفوقه المنهجي، وبراعته التنظيمية.

ويبقى الحفر المعرفي في التجارب الفكرية لمختلف الشخصيات فَرَشٌ ضروري لا مَعْدَى عنه في إثراء السَّاحة الفكرية، وتأكيد وَشَائِج الحوار بين مختلف المكَوِّنات الفكرية، فالعلمُ رَحِمٌ بين أهله كما يُقال.

1–4– أهداف الدراسة ومَرَاميها:

تهدف دراسة منهج مالك بن نبي في كتاب شروط النَّهضة إلى استِكْنَاه أهم التَبَصُّرَات المنهجية التي عرضها من خلال هذا الكتاب.

وتهدف **ثانيًا** إلى التساؤل عن مدى النَّجَاعَة التطبيقية لهذه النَّواظم المناهجية، والتأكد من إمكانية استرفادها في علاج بعض مشكلاتنا الفكرية المعاصرة.

1–5– السَّوابق البحثية:

استطاع مالك بن نبي أن يُؤَثِّرَ تأثيرًا ظاهرًا في مجال الدراسات الفكرية، وأن يُسجِّلَ أقصى درجات الحضور في أعمال طبقات واسعة من المفكرين المسلمين في الشرق والغرب.

ولعلنا لن نكون مبالغين إذا ما ادعينا أنَّ « الأفكار البِنَابِيَة » كانت الأكثر ذِكْرًا، والأوسع اهتمامًا من قِبَل جيل الشباب على مدار نصف قرن من الزمن أو يزيد.

إلا أنَّ الذي يُلاحظ على أكثر هذه الدراسات أنها قَدَّمَتْ مالكًا كنتيجة وليس كعملية، أي قدمته بطريقة نهائية تهتم بتسجيل نتائج أفكاره (الصرح المشَيَّد)، دون تَحَسُّس الحجارة التي كان مالك يبني بها أفكاره.

وهكذا ظَلَّتْ المَنَاحِي المنهجية من كتاباته مُهْتَضَمَة الجانب، مغموطة الحَقِّ، لم تَنَلْ حَظَّهَا من الدراسة والبيان، مع ما تمتاز به من القُوَّة والتَفَرُّد.

وليس يغيب عن الخاطر رسالة الأستاذ الفاضل محمد يحياوي الموسومة بـ « مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي »[1]، فهي وإن كانت ذات منحى شمولي إلا أنها استطاعت أن ترصد بعض الملامح المنهجية في المتن المالكي.

([1]) وأصلها رسالة ماجستير في الفلسفة، نوقشت سنة 1992م بمعهد الفلسفة ، جامعة الجزائر، ولم يكن يقصد بالمنهج في أجزاء كثيرة من رسالته المعنى الاصطلاحي المتعارف عليه، وإنما هو عنده بمعنى المشاريع والتجارب النَّهْضَوية.

1-6-مناهج الدراسة وآلياتها:

غالبًا ما يقال إنَّ الموضوع هو الذي يفرض المنهج اللائق به، وهذه المقولة الصحيحة تنطبق على هذا المقال، فالمنهج الذي لاءم طبيعة البحث، وانتهض لاستيفاء مقاصده المرسومة، مُرَكَّبٌ من الاستقراء، والتحليل، والمقارنة.

- **فالاستقراء** لتَقَصِّي المحتكمات المنهجية التي صَدَرَ عنها مالك بن نبي في بناء أفكار« شروط النَّهضة »، وتَفَحُّصِ الجزئيات التي تدلي بِنَسَبٍ أو سَبَبٍ إلى هذه المحتكمات.

- **والتحليل** لاستنطاق نصوص المؤلف في هذا الكتاب، واستلهام مقاصده وأغراضه.

- **والمقارنة**، لبيان مَكَامِنِ الوِفْقِ والفَرْقِ بين المنهجية المالكية وبعض المنهجيات المحايثة.

فهذه المناهج الثلاثة متضافرة، تعين في قراءة أفكار مالك المنهجية، وتتبُّع توجُّهاته وآرائه في قراءة الأحداث ومزجها بالتعليل، وربطها علميا بالأسباب ومسبباتها، بما يؤدي بالباحث إلى رسم الملامح العامة لمنهج مالك.

أما الخطوات الإجرائية التي تم اعتمادها في ترتيب مادة هذا المقال، فتنطلق من تجلية مظاهر الاهتمام بالمحتكم في الكتاب محل الدراسة [1]، مُرُورًا ببيان الأغراض والأهداف المتوخاة من توظيفه، وانتهاء بالحديث عن مدى إمكانية إعادة تشغيله في الدراسات الفكرية الراهنة.

1-7-خطة البحث وتنظيمه:

لاحتواء أطراف هذا الموضوع داخل بناء نَسَقي فقد عملت على تقسيم البحث إلى مُقَدِّمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

أما المُقَدِّمة، فقد تضمَّنَت بيانًا لبواعث اختيار الموضوع، ومَكْمَنِ جِدَّتَه وإضافته المعرفية، وخطته الهيكلية، والمنهج المختار في حقل الدراسة.

- **المبحث الأول**: التحليل النفسي (psycho-analysis)
- **المبحث الثاني**: التَقَصِّي التَاريخي (Historical Process)
- **المبحث الثالث**: قانون التعليل (Law-Causality)

وخاتمة، حَوَتْ بين عِطْفَيْهَا تقيّيمًا عامًا لمضامين البحث، ورَصْدًا لأهم نتائجه، مع التوصية ببعض المعالم الهادية إلى تعميق الإفادة من الفكر المالكي.

([1]) مع الاستعانة بمؤلفات مالك الأخرى، باعتبارها شرحًا للمتن النَّهضوي.

وإذا كان لي أن أذكر ما مررت به من صعوبة في إعداد هذا المقال البحثي، فهي:

– عدم وجود تجارب بحثية سابقة، عدا الوَشَل القليل.

– موسوعية مالك بن نبي، فقد كان ذا نزعة تأصيلية جذرية (intransigeant)، لا يقنع بالدوائر المعرفية القريبة، بل ينفتح على العطاءات المنهجية الغربية، ليستدمجها جميعًا بطريقة نسقية واعية [1].

– خفاء بعض الأدوات المنهجية التي اعتمدها مالك في بناء شروط النَّهضة، الأمر الذي يستدعي جهدًا مضاعفًا لتخطي هذا العَوَص؛ إذ ليس من السَّهل الوصول إلى قصد مُؤَلِّفٍ مَا، في مُؤَلَّفٍ مَا، لمنهج مَا، فكيف إذا كان المؤلِّفُ هو **مالك**، والمؤَلَّفُ هو **شروط النَّهضة**، والميدان هو **الفكر**؛ فـ « الكلام على الكلام صعب » كما يُقال.

2–التحليل النفسي (psycho–analysis)

بالرغم من أنَّ مالكًا يَتَمَثَّل – في الأساس– شخصية عالم الاجتماع أكثر من شخصية عالم النَّفس، إلا أنه حينما لاحظ عدم كفاية التحليل التاريخي في مقاربة الظواهر الاجتماعية، اهتدى إلى ضرورة استدماج التحليل النفسي في تفهُّم الظواهر الإنسانية، وتفكيك شفراتها، واستخلاص قوانينها الداخلية [2].

فالنَّهْضَة في فكر مالك تعود إلى شروط نفسية زمنية أحدثها الدِّين في نفسية الفرد، لتغدو بعد ذلك تركيبًا اجتماعيًا، ثم تنتهي في الأخير ضمن الحركة التاريخية. فالتحليل النفسي عند مالك أسبق من الناحية الإجرائية من التحليل التاريخي.

ويجدر التنبيه هاهنا إلى أنَّ استخدام مالك بن نبي للتحليل النفسي لم يكن بغرض التعرض إلى أثر النشاطات اللاشعورية في السلوك كما تذهب إليه المدرسة الفرويدية، وإنما كان غرضه هو الاستعانة بوسيلة فنية تسمح لمستخدمها بمعرفة التداخل الموجود بين الجانب الديني والجانب الاجتماعي، تمامًا مثلما هناك تداخل شعوري ولا شعوري في الحياة النَّفسية.

وفي ضوء ذلك لم يقبل ابن نبي التعامل مع مضمون التحليل النفسي كمعرفة ناجزة، فهو يُمَيِّز بين التحليل النفسي كموضوع والتحليل النفسي كمفاهيم وعلاقات. فإذا كان من الضروري الاستعانة بالتحليل النفسي كمفاهيم فإنه من الخطأ تعميم موضوع التحليل النفسي « اللاشعور» على جميع الحالات والظواهر،

([1]) استطاع مثلاً أن يدمج في تصوره كل من الفيلسوف البرغماتي الأمريكي (جون ديوي) مع الفيلسوف الألماني (نيتش). **يُنظر**: **BOUKROUH Noureddine** : *L'Islam sans l'Islamisme* Vie et pensé de Malek.samar.2006

([2]) ص61.

بل إنَّ مالكًا كان كثيرًا ما يعيب على الباحثين إسرافهم في التمسك بفرضية « اللاشعور» في تفسير الظواهر الدينية والاجتماعية [1].

وقد صَرَّحَ بانتهاج هذا المسلك في تحليل الفكرة الدينية المتصلة بعالم النفوس، بحسبانها تتيح للمفكر الوقوف على التركيب المباشر لتأثير الفكرة الدينية في تكوين « إنسان الحضارة » ، ونَصُّ عبارته:

« ولقد حاولت تلبية هذه الرغبة المحِقَّة فَخَصَّصْتُ في هذه الطبعة فصل « أثر الفكرة الدينية في مركب الحضارة »، سالكًا هذه المرة **مسلك التحليل النَّفساني** الذي يُبيّن بوضوح أكبر جانب من الظاهرة في هذا المركب، إذ يكشف لنا عن التأثير المباشر للفكرة الدينية في خصائص الفرد النفسية. وأنا في هذا لا أدعي أنَّ هذه الطريقة تُعطي للقارئ معرفة رياضية في الموضوع؛ لأنَّ هذا الموضوع لا مجال فيه للرياضيات، حيث يتصل بعالم النفوس، وهو عالم يَقْصُر العقل التجريدي عن أن يكشف سِرَّهُ تمامًا. غير أنه يُمكننا القول بأنَّ هذه الطريقة التي اتبعناها تعطي على الأقل للقارئ فرصة يتتبع فيها كيف تحدث عملية التركيب بتأثير الفكرة الدينية، وذلك بنظرة مباشرة **تختلف عن نظرة التاريخ غير المباشرة** » [2].

إنَّ هذا النَّقل يُحيلنا إلى اهتداء ابن نبي إلى توظيف التحليل النفسي في كشف تأثير الفكرة الدينية على خصائص الفرد النفسية.

ونستطيع القول إثر ذلك: إنَّ مالكًا هو أول مفكر عربي اهتدى إلى دراسة الظاهرة الدينية دراسة سوسيو- نفسية، متقَصِّيًا أثر الدِّين في السلوك الاجتماعي والنَّفسي، داعيًا إلى ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية انطلاقًا من ظاهرة التحليل النفسي [3].

([1]) كما في الظاهرة القرآنية: ص163، عن محمد يحياوي،ص127.

([2]) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، ص13، كما استخدمه في دراسة الظاهرة القرآنية، وميلاد مجتمع، فالفكرة الدينية تفسر بحسبه بمستويين:

أولا : بلغة علم الاجتماع.

وثانيا: بلغة علم النفس. **يُنظر**: ميلاد مجتمع، ص67. وكذا الظاهرة القرآنية، ص70.

([3]) **يُنظر**: **محمد يحياوي**، مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، ص159.

فإذا كان « فرويد » استطاع أن ينقل التحليل النفسي من الإطار العيادي البحت إلى ميادين معرفية رحبة، كالفلسفة والدِّين والاجتماع والأدب، فإنَّ مالكًا استطاع أن يُعطي هذا المسلك طابعا بينيًا علائقيًا يدرس الثنائيات بناء على التفاعل بين الشعور واللاشعور.

وهذا ما يُحيلنا إلى خصوصية التوظيف المالكي لمنهج التحليل النفسي؛ فقد أستطاع أن يُحقِّق قفزة ابستمولوجية في هذا المجال.

وفيما يلي بيانٌ لأهم مظاهرها وأغراضها:

2–1– موقع التحليل النفسي في شروط النَّهضة:

إنَّ التقصِّي الموضوعاتي لكتاب « شروط النَّهضة » يكشف لنا حضور منهج التحليل النفسي في العديد من قضاياه، نذكرها مرتبة حسب ورودها في الكتاب:

- تحليل نفسية أبطال الملاحم الذين يتحركون بدافع الطموح واكتساب المجد [1].
- تحليل ظاهرة الميل إلى التكديس والمراكمة [2].
- تحليل أسباب النُّكُوصِ والعودة إلى الحياة البدائية [3].
- تحليل نفسية القبائل الجرمانية اعتمادًا على كتاب البحث التحليلي لأروبا [4].
- التحليل النفسي للنَّظرية الشيوعية [5].
- اللجوء إلى لغة التحليل النفسي بغية تتبع اطراد الحضارة [6].
- تحليل نفسية الحضري والبدوي [7].
- استخدام مراحل الطفولة للدلالة على عالم الأفكار وإنتاجها [8].

([1]) ص19.

([2]) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، من التكديس إلى البناء، ص40–46.

([3]) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، ص53.

([4]) **المصدر نفسه**، فصل الدورة الخالدة، ص56.

([5]) **المصدر نفسه**، ص54.

([6]) **المصدر نفسه**، ص67.

([7]) **المصدر نفسه**، ص76.

([8]) **المصدر نفسه**، ص92.

- تحليله منطق العمل وتفسير ظاهرة « إهدار الأوقات في العبث والمحاولات الهازلة » [1].
- تحليل نفسية صاحب الزَيِّ، وبيان أثره على شعور صاحبه [2].
- دراسة نفسية المستَعْمِر، والمسْتَعْمَر (القابلية للاستعمار) [3].
- تحليل نفسية إنسان مابعد الموحدين [4].

2-2- أغراض توظيف التحليل النفسي:

أتاح التحليل النفسي لمفكرنا أن يُحَقِّق أربعة أغراض أساسية، نُوجزها في الآتي:

- **الغرض التحليلي:**

وذلك عن طريق قراءة الحوادث قراءة نفسية، تكشف عن مكنونات النفس ومُخَبَآتِها، بِحُسْبَانِها طريقًا لقياس الوعي الاجتماعي والثقافي والحضاري للمجتمعات العربية، وتعميق فكرة النَّهضة، وتقوية الثقة بها.

فعملية التغيير لا تتأتى في نظر مالك بن نبي إلا بالحفر العميق في نفسية الفرد، والغوص في أعماقها، واستخراج ما بها من أزمات وعقد، وإلا فهي مجرد تهلية عابرة أو انتهاز مشين.

- **الغرض الوظيفيي:**

فبعد تحليل عناصر النَّهضة يشرع مالك بن نبي في محاولة تحويلها إلى واقع عملي، ويرى أنَّ ذلك لا يَتَأَدَّى إلا من خلال اتصال الأفراد بهذه العوامل.

فقد أتاح التحليل النفسي لمالك أن يمنح للفكرة الدينية **بُعْدًا وظيفيًّا**، وذلك من خلال مقاربتها بطريقة سيكولوجية تبرز أثر الرقابة النفسية في كَبْحِ جِمَاح الهَوَى، وكَفْكَفَة رُعُونات الغَيِّ.

- **الغرض التفسيري:**

كما استخدم مالك منهج التحليل النفسي في مجال التفسير، وذلك عند تفسير آية التغيير ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ **[الرعد: 11]**، مستهدفًا إيجاد منهج اجتماعي في

([1]) **المصدر نفسه**، فصل منطق العمل، ص96.

([2]) **المصدر نفسه**، تحت عنوان مشكلة الزي، ص122-124.

([3]) **المصدر نفسه**، فصل معامل القابلية للاستعمار، ص 152.

([4]) فهو يتصف بالسلبية واللامبالاة اتجاه مشكلاته، حيث أصبح نفسيته متمردة على النقد الذاتي، ولا تملك الشجاعة للاعتراف بمشاكلها، بل تسارع دومًا إلى إلقاء المسؤولية على الآخرين، وهذا ما انتهى به إلى حالة من القابلية للاستعمار.

التفسير يعيد للآية القرآنية فاعليتها الروحية ووظيفتها الاجتماعية، بحيث يتم تلقيها على سبيل الذكر، وتنزيلها على مواطن الحاجة من القلب والوجدان كما يتنزل الدواء على الداء.

- **الغرض المفاهيمي:**

سَبَقَ البيان أنَّ استخدام مالك لمنهج التحليل النفسي تَجَلَّى بصورة أكثر على مستوى المفاهيم والعلاقات، فمالك – رحمه الله– وَظَّفَ مجموعة من المفاهيم النفسية لضبط العلاقة بين ظاهرة الدِّين وظاهرة الحضارة، نحو: الفكرة الدينية، الطاقة الحيوية، العقل. فهذا المفاهيم الثلاثة تتفاعل فيما بينها لتنتج البراديغم الحضاري،

وعليه، فإنَّ الحضارة هي منتوج نفسي مركب من الفكرة الدينية وتأثيرها في الطاقة الحيوية من جهة، والفكرة الدينية وعلاقتها بالعقل من جهة أخرى، وهذه هي العلاقة الدينامية التي نجدها في التحليل النفسي بين « الأنا الأعلى» « والهو» من جهة، وعلاقة « الأنا» بـ « الأنا» من جهة أخرى، وعلاقة « الأنا» بـ « الهو» من جهة ثالثة، وهذا حسب الصورة التي حددها رائد التحليل النفسي فرويد [1].

ويجدر التنبيه إلى أنَّ التوظيف المالكي لمفاهيم التحليل النفسي اتسم في كثير من الأحيان بالحذر والتوقي، فقد كان يستلهم منها الجانب الإجرائي الوظيفي الذي يخدم فكرته، دون الانسياق وراء خلفياتها الإيديولوجية المتحيّزة.

2–2– وجه الاستفادة من التوظيف المالكي للتحليل النفسي:

اختار مالك التحليل النفسي كأسلوب وصفي تحليلي للذوات الإنسانية المتفاعلة مع المعطيات الثقافية والفنية والاجتماعية، فهو عنده – وفق المصطلح الأرسطي– « نظرية مفتاح » تتخطى إمبراطورية اللاشعور (كالأحلام والغرائز والأمراض النفسية) إلى دراسة موضوعات فكرية معقدة، كالحضارة والنَّهضة والدِّين..

ولذا، فإنه بإمكاننا اليوم استرفاد هذه الطريقة المالكية في معالجة العديد من قضايانا الفكرية ومشكلاتنا الاجتماعية المعقدة [2]، نحو:

([1]) **سيجموند فرويد**، الأنا والهو، ص78، **نقلاً عن محمد يحياوي**، مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، ص61.

([2]) طبعًا مع الأخذ بعين الاعتبار النمو المتزايد الذي يشهده علم النفس سواء على المستوى الداخلي، أو على مستوى علاقاته التساندية مع مختلف علوم الإنسان والاجتماع.

ومن الدراسات التي وظفت مباضع التحليل النفسي في تحليل بعض الموضوعات الاجتماعية والدينية (مع التحفظ على بعض نتائجها):

- مشكلة الحريات السياسية والاجتماعية.
- التَعرُّف على سيكولوجية الإلحاد بغية اكتشاف دوافعه الخفيّة.
- معالجة مشكلة التدين المنقوص (المغشوش)، من خلال الاهتمام بجانب اللاوعي، وتحقيق التوازن المطلوب بين مطالب الهُو (id) مستقر الغرائز والدوافع الفعلية، وبين الأنا الأعلى (super-ego)
- تحليل ظاهرة سلطة الاستبداد في المجتمعات العربية المقهورة.
- دراسة مظاهر الفساد بمختلف تمظهراته السياسية، والخلقية، والمالية .
- دراسة سيكولوجيا الجماعات، وتفكيك مفاعل النرجسيات الفردية والجماعية.

3- التَقَصّي التاريخي:

يُعَدُّ عنصر « التاريخ » أحد أهم المحتكمات المنهجية الفاعلة في تأسيس فكر ابن نبي، وقد انطلق من مَفْرُوضَةٍ مفادها أنَّ علاج المشكلات الرَّاهنة يرتبط أساسًا « بعوامل زمنية » [1]، داعيًا إلى ضرورة « التأمل في سنن التاريخ » [2] ، مُسْتَهْدِيًا في ذلك بدعوة القرآن الكريم إلى الاعتبار بما مضى من سير الأمم، لإدراك كيفية حصول التوليفة الثلاثية: الإنسان والتراب والوقت [3].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ التوظيف المالكي للتاريخ الحضاري لا يقف عند الظواهر والجزئيات المسَجَّلَة في صفحات الماضي، بل كان يُصِرُّ على ضرورة وصله بمبدأ « السببية والتعليل »، توصلاً لإدراك منطق تتابع الأحداث، في صورته المتطورة « من حيث كونها عملية تطور» [4]، ذلك أنَّ التاريخ كما يقول ابن خلدون (ت808هـ) « لا يزيد في ظاهره عن أخبار الأيام والدول.. ولكن في باطنه نَظَرٌ وتَحْقِيقٌ » [5]؛ فالمعرفة التاريخية عند مالك هي ذات طبيعة تركيبية شمولية تتعامل مع المسار التاريخ ككل موضوعي، يَتَغَيَّا الكشف عن منطق باطني يُوَحِّد أغراض الحوادث ويُوَجِهها نحو تحقيق غاية مرسومة [6].

- دراسة عبد الإله بلقزيز: « نهاية الداعية».
- دراسة ورج طرابيشي « الرجولة والأنوثة في المجتمع العربي ».

([1]) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، ص48.

([2]) المصدر نفسه، ص48.

([3]) المصدر نفسه، ص56

([4]) المصدر نفسه، ص27

([5]) **ابن خلدون**، المقدمة، ص6

([6]) على نحو أوغسطين، هيجل، كونت.

وبعبارة أدنى إلى الإيجاز أخرى يمكن القول: إنَّ مالكًا كان يتعامل مع التاريخ على أنه صناعة فلسفية، لا على أنه مجموعة حوادث متعاقبة وأخبار متسلسلة [1].

كما يُلاحظ كذلك أنَّ استفادة مالك من المنهج الخلدوني كانت على مستوى البناء الهندسي للظواهر الاجتماعية وليس على مستوى المضمون، أي على مستوى المقدمات لا على مستوى النتائج [2]، وعذره في ذلك أنَّ ابن خلدون (ت808هـ) لم تُتَح له فرصة صياغة قانون الدورة (loi du cycle) بسبب توقف مصطلح عصره عند ناتج معين من منتوجات الحضارة وهو مفهوم الدولة، لا الحضارة نفسها[3].

فإذا كانت النَّظرية الخلدونية تختزل ظاهرة المجتمع المتكامل في عنصر الدولة المحكوم – أساسًا– بعنصر العصبية، فإنَّ مالكًا يرى أنَّ الدولة القوية هي نتيجة للمجتمع المتكامل[4].

وَرَكْحًا على ذلك يمكن القول: إنَّ التوظيف المالكي للتاريخ هو توظيف عقلانيّ مُرْتَجَل لم يَأْتَمّ فيه بأحدٍ مِمَّن تَقَدَّمَه، فهو يختلف عن التوظيف الخلدوني الذي رأيناه محصورًا في مُسَمَّى الدولة، ولا يصدق على عالم السياسة والمجتمع. كما أنه يُباين التوظيف الهيجلي (1770م – 1831م) الذي ينزع النزعة الاختزالية الإيديولوجية، التي تهمل منظومة الأخلاق والقيم.

([1]) وهذا ما صرح به مالك في كتاب وجهة العالم الإسلامي حينما قال: « لدراسة التاريخ جوانب متعددة، فإذا ما تناولناه بالقياس إلى الفرد كان دراسة نفسية، إذ يكون دراسة للإنسان من حيث كونه عاملاً نفسيًا زمنيًا في بناء حضارة... ومن هذا الجانب يعتبر التاريخ دراسة اجتماعية؛ إذ يكون دراسة لشرائط نمو مجتمع معين.. على أنَّ هذا المجتمع ليس معزولاً، بل إنَّ تطوّره مشروط ببعض الصِّلات الضَّرورية مع بقية المجموعة الإنسانية، ومن هذا الجانب يصبح التاريخ ضربًا من الميتافيزيقا، إذ أنَّ مجاله يمتد إلى ماوراء السببية التاريخية » . **مالك بن نبي**، وجهة العالم الإسلامي، ص21.

([2]) **يُنظر**: **محمد يحياوي**، مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي ص121 ، وقد أشار – حفظه الله – إلى أنَّ المنهج الخلدوني تطوريًا وليس تركيبيًا.

([3]) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، ص62 ، ومما جاء في مشكلة الأفكار: « وهكذا لم نجد فيما تركه ابن خلدون غير نظرية عن تطور الدولة، في حين أنه كان من الأجدى لو نظريته رسمت لنا تطور الحضارة، حيث كنا نستطيع أن نجد فيها ثورة من نوع آخر». **مالك بن نبي**، مشكلة الأفكار، ص43.

([4]) ويُعلّل مالك بن نبي في موضع آخر بقوله: « لأنَّ السياسة لا تستطيع أن تكون العمل الذي تقوم به الأمة كلها إلا بقدر ما يكون مطبوعة في عمل كل فرد منها». **مالك بن نبي**، بين الرشاد والتيه، ص70.

3-1- موقع التحليل التاريخي في شروط النَّهضة:

بإجالة النَّظر في الموضوعات التاريخية التي طرحها مالك بن نبي في « شروط النَّهضة » نجد أنَّ دالتها الزمنية كانت مُنْدَاحَة الأبعاد، فسيحة الأرجاء، فهو ينطلق من بَوَادي الوقائع التاريخية كغار حراء، وواقعة صفين 38هـ[1]، وعهود الملاحم [2]، مُرُورًا بِهَوَادِي الأطوار الحضارية (الفطرة- العقل- الغريزة)، ليخلص في الأخير إلى لتأريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية.

كما أنه لم يقتصر على التاريخ الإسلامي فحسب، وإنما تَعَدَّاه إلى استقراء تاريخ الديانات الأخرى، كالبوذية والبرهمية، في سعي منه لتأكيد ارتباط الحضارة بالعنصر الديني.

ولشدة اهتمام مالك بمنهج التحليل التاريخي فقد مَحَضَّ الجزء الأول من الباب الخاص تحت عنوان «الحضارة والتاريخ » لتأريخ الوضع السَّابق لسؤال النَّهضة ما بين (1925-1936)، وفحص سجلات خمسين سنة قبلية، كأقليدٍ منه لمقاربة الظاهرة الاستعمارية.

3-2- أغراض التوظيف التاريخي عند ابن نبي:

إنَّ عودة مالك للتاريخ ليست ضربًا من « النُوستاليجيا » التي تهدف إلى الاجْتِنَانِ وراء أمجاد الماضي، والتَفَصِّي عن التحديات الرَّاهنة، وإنما كان – رحمه الله – يُسائِل التاريخ عن هوياتنا المُلْتَاثة، ويستنطقه عن نهضتنا المُتَعَثِّرة.

ومن الأغراض التي توخاها مالك في توظيف المنهج التاريخي:

– تحليل أدوار الحضارة من الوجهة التاريخية لاستخراج السر الكوني الذي يُرَكِّب عناصر الحضارة، فالتجارب التاريخية تؤكد أنَّ الحضارات تبدأ قوية متصلة بالسَّماء « الروح »، ثم تمر بمرحلة العقل، لتعود في نهاية الدورة الحضارية إلى الحياة البدائية « الغريزة » [3].

([1]) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، ص47.

([2]) **المصدر نفسه**، ص19.

([3]) **المصدر السابق**، ص54و57.

– تحديد عوامل الانحطاط وأسباب التقدم [1]، تحقيقا لفائدة الاقتداء والاتساء؛ فالذين لا يتذكرون الماضي محكوم عليهم بإعادته على حد قول الفيسلسوف الأمريكي « جورج سانتيانا».

– تفسير وتعليل الظواهر الاجتماعية.

– تَفَهُّم الظاهرة الاستعمارية وتفكيكها [2]

– التأكيد على ارتباط الحضارة بالعقيدة الدينية [3].

– التأكيد على أنَّ الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية تضعف حينما تدخل الحضارة مرحلة العقل (المرحلة الثانية من الدورة الحضارية)، وتنتهي عندما تدخل المرحلة الثالثة (الغريزة).

– المقارنة بين الوقائع التاريخية واستخلاص النتائج منها، وهو ما يُسَمِّيه النَّشَار بخطوة « التفسير والرؤى »[4]، حيث يتم تطبيق إجراءات فيلولوجية تقوم على المقارنة بين النصوص، ورد بعضها إلى البعض، انطلاقًا من مفروضة مُؤَدَّاها: تأثّر بعضها ببعض. وذلك لغرض استجلاء العناصر القيمية والخلقية، كعنصر الدولة، والحضارة، والحرية، والعدالة..

– التأكيد على أنَّ قدرة الفكرة الدينية على تكييف وتوجيه سلوك الفرد، اعتبارًا بتأثير الإسلام على الذات العربية في الجاهلية.

3–3– وجه الاستفادة من التوظيف المالكي للتحليل التاريخي:

حينما كانت المدنيات الإنسانية حلقات متصلة ومتشابهة، وكان التاريخ عملاً تجريديًا تركيبيًا يحتوي على كل شيء على قول « بول فاليري »، فإنَّ مفكرنا أقام فكرة التاريخ على عناصر ديناميكية تضمن لها

([1]) يقول مالك في شروط النهضة: « من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دورة وتسلسلاً، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها، ليسلمها إلى نومها العميق. فإذا ما أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار، ختم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا، وما يعتورنا من عوامل الانحطاط وما ننطوي عليه من أسباب التقدم. فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا». **مالك بن نبي**، شروط النهضة، الدورة الخالدة، ص47.

([2]) **المصدر نفسه**، ص51. فلكي نتبع المقياس الصحيح في درس الاستعمار يلزمنا أن نراه في أعماق التاريخ، ذلك أنَّ أصوله تعود إلى روما. **المصدر نفسه**، فصل معامل الاستعمار، ص148.

([3]) **المصدر نفسه**، ص51.

([4]) **علي سامي النشار**، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج2، ص11.

الانتقال من الزمن المعاش (temps vécu) إلى زمن موضوع (temps conçu) من أجل إعطاء معنى حقيقي للحاضر ومَدياته المختلفة.

إنَّ التاريخ – على حد قول المؤرخ الإيطالي« كروتشه »– كله تاريخ معاصر، فاستدعاء التاريخ يقودنا إلى صميم العصر، لا بل يفتح أمامنا بوابات نشرف من خلالها على المستقبل القريب والبعيد.

وفيما يلي بيان لأهم العناصر التداولية التي يمكن استرفادها في هذا السياق:

– إناطة الأفكار النَّهضوية بالعوالم الثلاثة المجتمعة: علم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء.

– وضع العوامل التاريخية ضمن أنساق تداولية عملية يسهل الإفادة منها، وفق ما يُسَمِّيه هيجل بـ « التاريخ البرجماتي العملي».

– الإفادة من اتساع الدَّالة التاريخية التي اعتمدها مالك بن نبي في تأصيل شرائط النَّهضة، ، فلا ينبغي أن نحصر دراساتنا الفكرية ضمن أنساق زمنية ضيّقة، بل يجب أن نعطيها الصبغة الشمولية التي تليق بها، فالإسلام يمتد مكانًا من طنجة إلى أندونيسيا، ويَنْدَاح زمانًا من عهد النُّزُول إلى عصرنا الراهن.

– منطق الفعالية، فمالك حينما كان يُوَّظف التاريخ كان يتحسَّسُ من خلاله حركة الإنسان وفاعليته، ولذا نجده مهمومًا بالعمل أكثر من اهتمامه بالفكر، فالذي ينقص المسلم بِحَسَبه ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة [1].

– ضرورة الاستهداء بالفكرة الدينية في أعملنا الإصلاحية، فللدِّين يَدٌ صالحة في ترويض النَّفس العربية، وبعث الأفكار، وصناعة الوعي، وهو العامل المفصلي المؤَثِّر في جميع المحاولات التفسيرية..

ويعني مالك بالفكرة الدينية تحديدًا: « توجيه النَّاس نحو معبود غيبيّ، ولو كان من نوع زمني، أي في صورة مشروع بعيد المدى، مثل بناء مجتمع جديد »[2]. فالمعبود هنا بالمعنى العام: المشروع، وليس الكائن؛ فكل مشروع يشحن النَّاس ويُحَدِّد لهم مستقبلاً ويغرس فيهم الطموح والأمل، يعتبر دينا، أي: تصوّر القداسة في فكرة أو مشروع أو كائن حتى يصبح الأفراد في سعي دائم وبحث مستمر من أجل الارتباط بالمثل العليا[3].

([1]) **مالك بن نبي**، شروط النهضة95، وكذا ص88.

([2]) **المصدر نفسه**، فصل الدورة الخالدة، ص51.

([3]) **محمد يحياوي**، مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، ص 41.

ومن شدة رسوخ الفكرة الدينية عند مالك أضحت أحد أهم مظاهر التَمَيُّز في خطابه النَّهضوي، فهي عنده ليست مجرد اعتقاد وجداني، وإنما قانون اجتماعي يُفَسِّر الكثير الظواهر الإنسانية، في النَّهضة والسياسة والحضارة، والمجتمع، والثقافة..

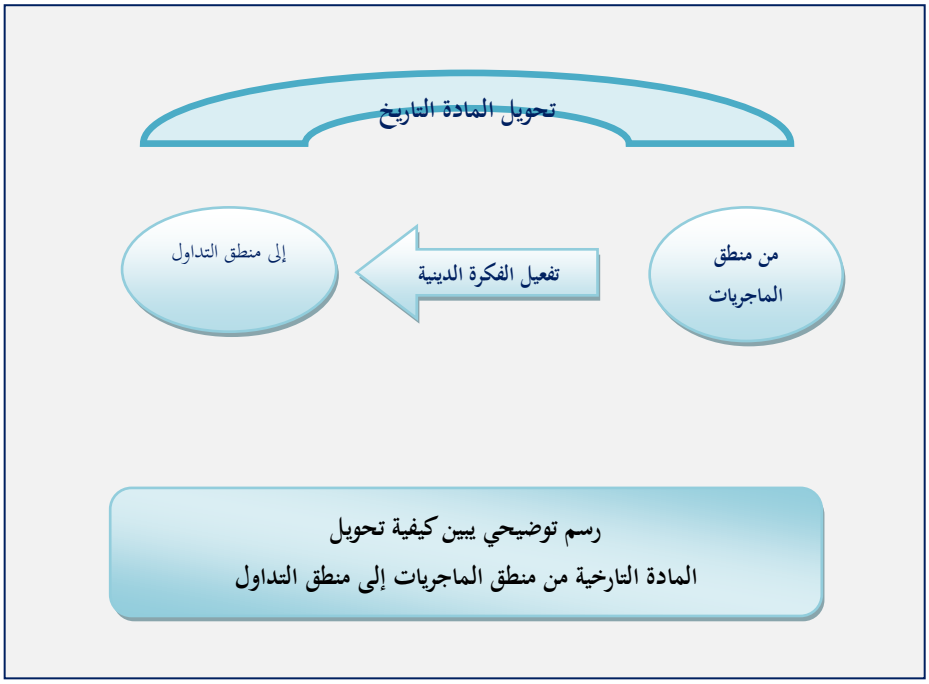

رسم توضيحي يبين كيفية تحويل
المادة التارخية من منطق الماجريات إلى منطق التداول

4– قانون التعليل

حينما لاحظ مالك عدم كفاية المنهج التاريخي في تقرير قوانين معيارية جامعة، اضطر إلى الاعتضاد بمبدأ عقلي تركيبي يضمن له إنشاء التعميمات الفكرية، والوقوف على القوانين النَّاظمة للحوادث والظواهر المدروسة.

ويُشير مبدأ العليّة (causality) إلى مجموعة العلاقات السببية أو علاقات « سبب– تأثير» (cause-and-effect)التي يمكن ملاحظتها خلال الوقائع النفسية والتاريخية.

وإذا اعتبرنا التحليلين النفسي والتاريخي أُولى خطوات البحث الاجتماعي، فإنَّ التعليل هو الخطوة الحاسمة في ضبط مَعَاقد الفكر النَّهضوي ونظم تفاريعه وجزئياته. فالدراسات النفسية والتاريخية هي بمثابة المقَدِّمات الممَهِّدات للمرحلة التعليلية، التي هي مرحلة بناء وتركيب.

4-1- موقع قانون التعليل في شروط النَّهضة:

بحكم الطبيعة التأصيلية لكتاب « شروط النَّهضة»، فإن مالكًا رحمه الله – حرص على ضبط مضامينه الفكرية ضمن أحكام متحدّة، هي بمثابة القوانين الكاشفة عن أغراض الكتاب وأسراره.

وقد احتل مبدأ التعليل مساحة غير منكورة من كتاب « شروط النهضة »، يمكن تجليتها في النقاط الآتية:

– تعليل سكوت المقاومة الشعبية وعدم نجاعتها بكونها ذات طابع بطولي ملحمي، وليس رسالي حضاري [1].

– تعليل نجاح أي محاولة تاريخية حضارية بفهم المبرّرات الحقيقيّة، وانخراط جميع أفراد المجتمع ضمن ما يُسَمِّيه مالك بـ « الحَاسَّة الاجتماعية »[2]، وليس بنُشدان البطولات والملاحم « الشَّاعرية » على حد تعبيره.

– تعليل القابلية للاستعمار[3].

– تعليل بقاء الإسلام واستمراريته، وذلك بما ينطوي عليه من قوة روحية [4].

4-2- أغراض توظيف قانون التعليل:

سعى ابن نبي من خلال تعليل أهم الظواهر الإنسانية التي درسها في شروط النَّهضة إلى تحقيق جملة من الأغراض، نذكر منها:

– معرفة أسباب تخلف الأمة، والتساؤل عن سبب كونه في جيل معين دون غيره من الأجيال؟ وهنا أكد مالك أنَّ معرفة الأسباب هي مقدّمة لفهم النتائج المتوصّل إليها، وتقديم كيفية الخروج من الأزمة الحضارية.

– توظيف مبدأ العليّة في تحليل ضعف الفكرة الدينية [5].

– توظيف مبدأ العليّة في تفسير مشكلة اللافاعلية.

---

(1) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، دور الأبطال، ص20.

(2) **المصدر نفسه**، ص19-20.

(3) **المصدر نفسه**، ص152.

(4) **المصدر نفسه**، دور الأبطال، ص21.

(5) **مالك بن نبي**، شروط النهضة، ص69.

– اعتماد مبدأ التعليل للتفريق بين التاريخ والقصص [1].

– البحث في العلاقات البينية بين الأسباب الكامنة، ثم ربط بعضها ببعض، وتحليل خلفياتها الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية؛ ليصل من خلال هذا التحليل إلى النتائج التي يُعرَف من خلالها حقيقة الأحداث، وسرّ ترابطها وتشابهها.

– تعليل العديد من الظواهر الإنسانية، والمشكلات الاجتماعية وردها إلى مشكلة القابلية للاستعمار، فالحكومة الاجتماعية عند مالك ما هي إلا آلة تتغير تبعا للوسط [2]، وقد استدل مالك على هذا التعليل بواقع الدول الإفريقية والأسيوية نجدها خاضعة لجميع الظروف الاستعمارية كالفقر والجهل، مع أنها لم تخضع للاستعمار، وعلى العكس اليابان وألمانيا تحل بأرضها جيوش الاستعمار لكن لا تتكون فيها ظروف استعمارية [3].

– الوقوف على عوامل الانحطاط وأسباب التقدم.

– تعليل التحضّر بفكرة التوجيه: توجيه الثقافة، توجيه العمل، توجيه رأس المال [4].

– تفسير التطور المادي الغربي بالصِّلات الاجتماعية.

5. الخاتمة:

تبعًا للوظيفة المنهجية للخاتمة، ووفاءً للتصميم الهيكلي لهذا المقال، فقد أحببت انهاء محاوره بنتائج مستوعبة لأهم الأفكار والقضايا المنهجية التي أثارها سؤال المنهج في الكتاب المدروس، وهي محصورة في خمس مستويات:

أولاً– المستوى التجديدي:

يعد مالك بن نبي أحد رواد التجديد المنهجي للحالة الفكرية المعاصرة، وذلك من خلال النماذج التحليلية التي قدمها في هذا الكتاب المرجعي (reference sources)، فقد استطاع أن ينقل الفكر النَّهضوي من مستوى الوصف والتأريخ المجرد إلى مرحلة جديدة من التحليل والتفسير والتركيب، فشَرَعَ بذلك للمُفكرين مَوْرِدًا عَذْبًا، وارتاد لهم طريقًا نَهِجًا، فألهم الأقلام، واسْتَفَزَّ القرائح.

([1]) **المصدر نفسه**، ص19–20.

([2]) **المصدر نفسه** ص30.

([3]) **المصدر نفسه** ص31.

([4]) **المصدر نفسه**، ص77.

ثانيًا– المستوى المرجعي:

لاحظت هذا المقال أنَّ مَكْمَن القُوَّة في أطروحة مالك بن نبي: هي اعتباره « المرجعية الإسلامية » مُكَوِّنًا عضويًا لا يمكن إزاحته أو تخطيه، فقد كان يرقب في بحوثه كلها المرجعية الإسلامية، فلا يصدر إلا عن مقتضيات الوحي القرآني والتجربة الإسلامية.

ثالثًا–المستوى الابستمولوجي:

استطاع مفكرنا أن يُفيد من العَطاءات المنهجية المختلفة (التراثية منها والمعاصرة)، دون أن ينحاز إلى جهة معينة، أو ينبهر بخطاب ما، متمَثِّلاً في ذلك قول قطب: « نفسح صدورنا لكل المعارف على أن لا تستعبدنا هذه المعارف» [1].

قد كان مالك في هذا الكتاب نفسانيًا، لكن ليس على الطريقة الفرويدية، وتاريخانيًا لكن ليس على الطريقة الخلدونية ولا الهيجلية، وعقلانيًا لكن ليس على الطريقة الديكارتية، بل جمع بين ذلك كله بطريقة نسقية واعية، تتجاوز الأقانيم الفكرية التقليدية الجاهزة (الكليشهات).

وفي وُسعنا القول: إنَّ مالكًا حينما جعل تبعيته للعلم كما يقول « باشلار»، استطاع أن ينتقل بالفكر النَّهضوي من « الإيديولوجي » إلى « الابستمولوجي ».

رابعاً: المستوى البيني (التكامل المنهجي):

رأينا كيف أنَّ مالكًا حينما أراد أن يتعرف على الأثر النفسي التي تتركه الفكرة الدينية على حياة الفرد لجأ إلى منهج التحليل النفسي، وحينما رام التعرف على نظام العلاقات الاجتماعية اعتَضَد بالتحليل التاريخي، وحينما احتاج إلى صياغة قوانين معيارية عامة نزع إلى مبدأ التعليل.

خامسًا– المستوى الإجرائي (التفعيلي):

إنَّ أول ما يلوح لنا من دراسة المنهج عند مالك: هو أنَّ الخطاب المالكي لم يفقد قيمته التداولية، خاصة ما تعلق منه بجانب المنهج، فخطته المنهجية في النَّهضة والإصلاح يجد فيها « مسلم اليوم » تعبيرًا عن أوضاعه الرَّاهنة، ورجاءً لتطلعاته المُنْفَسِحَة، وَوَفَاءً لآمَالِه الوَاسِعَة.

إنَّ هذا المستويات وغيرها تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ إجادة مالك بن نبي للتأليف والتركيب لا تقل عن إجادته للتحليل والتفكيك، وهذا بخلاف ما ذهب إليه المفكّر الكبير محمد أبو *القاسم حاج* حمد.

([1]) **سيد قطب**، مجلة الكتاب، مج3، ج2، ص218، السنة الثانية ، ديسمبر 1946م.

ومما يُزكي دعونا هذه ويدعمها– إضافة إلى ما سبق – أنَّ مالكًا – رحمه الله – صَنَّفَ كتاب « الظاهرة القرآنية» (وهو كالشَّرح لشروط النَّهضة) بِنَجْوَةٍ عن المصادر والمراجع، معتمدًا في ذلك على فكره التركيبي، ومُكنته المناهجية.

إنَّ هذا المقال إذ ترصد هذه المحتكمات المنهجية فإنه يوصي بالآتي:

– توعية أبناء الأمة بأهمية هذه المسالك المنهجية التي اعتمدها مالك بن نبي.

– صناعة معجم جامع للاصطلاحات الفكرية التي نحتها مالك بن نبي في مختلف كتاباته.

– تعميق الحفر في المشاريع الفكرية التي بدأها مالك بن نبي، تحقيقًا للشرط الذي يظلّ غائبًا في أغلب المحاولات الفكرية في عالمنا الإسلامي، وهو شرط المراكَمَة والمتابعة.

– توجيه الأقلام البحثية نحو المَناحي المناهجية في كتابات مالك بن نبي، فهي بمثابة السُّلَم الموصل إلى الطبقات العلوية من العمارة الفكرية التي شيَّدَها صاحب شروط النَّهضة؛ فمالك لا يحتاج اليوم إلى التمجيد والإشادة بقدر ما يحتاج إلى تحيين مناهجيّ، وتَمَثُّل ديناميكي واقعي.

–بحث فكرة التفكير المنظومي (Systemic Thinking) عند مالك بن نبي، فقد كان يجري أبحاثه بطريقة تقوم على الاتصال المطلق بين كافة المكونات (web)، وهو ما مكَّنه من الارتقاء بمشكلة النَّهضة إلى مستوى البناء الشمولي والنظرية الكاملة.

هذا ما تَيَسَّر ذِكره في هذه المقال، وحسبي منها أنها أثار في نفسي الشعور بأهمية هذا المشروع الواعد، وأوقفتني على أرضه الفسيحة الخصبة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

قائمة المصادر والمراجع:

1 – ابن خلدون، المقدمة، السعودية: دار المدينة، د.ط، د.ت.

2 – سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، القاهرة: دار النهضة، د.ط، 1980م.

3 – سيجموند فرويد، الأنا والهو، القاهرة، دار الشروق، ط4، 1982م.

4 – محمد أبو القاسم حاج حمد ، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي، بيروت، دار الهادي، ط1، 1425 هـ.

5 – مالك بن نبي، شروط النهضة، بيروت: دار الفكر المعاصر، د.ط، 1986م.

6 – مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، بيروت: دار الفكر المعاصر، د.ط، 2002م.
7 – مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، بيروت: دار الفكر المعاصر، د.ط، 1959م
8 – محمد يحياوي، مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، ماجستير، جامعة الجزائر، 1993م.